إهداء

إلى سيادة الرئيس القائد محمد حسني مبارك ، حفظه الله .
وإلى سيادة اللواء أركان حرب مدير عام الكلية الحربية
وإلى روح الزعيم الخالد سيادة الرئيس جمال عبد الناصر .
وإلى سيادة رئيس المخابرات العامة الوزير عمر سليمان .
وإلى شريكة حياتي وأولادي وأمي الغالية وجميع أشقائي .
وإلى شعب مصر المكافح العظيم .
أهديهم هذا العمل البطولي التاريخي .
وفقنا الله لما فيه رضاه ورحمته .

المؤلف

جابر عبد السلام هلال

محارب قديم

عضو جمعية المؤلفين والملحنين بفرنسا

obeikandl.com

obeikandl.com

تقـــديم

الراوي: المؤلف في شخصية الدكتور وهو يتحدث عن نفسه. والعهدة على الراوي.

يقول الدكـتور مصطفى الحفناوي: في شهر يوليو سنة 1956م، كنت مع زوجتي وأولادي نقضي الصيف كعادتنا بمدينة الإسكندرية، وكنا نسكن في بيت يطل مباشرة على شاطئ (ميامي)، ولكني أخذت نفسي وقتئذ ببرنامج آخر غير الاصطياف والبحر والنسيم العليل، كنت أستيقظ يوميًّا في ساعة مبكرة، وأستقل السيارة لأقطع مسافة خمسين كيلومترًا بالتحديد، حيث أصل إلى مزرعة، بلغت مساحتها ثمانين فدانًا، كانت مملوكة لأولادي، وكانت من حيث التربة والموقع عديمة المثال؛ فهي جزيرة تكونت من طمي النيل، تقع بين فرع رشيد وترعة اسمها الرشيدية، في زمام بلدة اسمها (محلة الأمير)، وقد اشتراها أولادي من ورثة أسرة من معاتيق (محمد علي) الذي أقطع معاتيقه هؤلاء تلك الأرض وغيرها، وكنت أقضي اليوم كله مشتغلاً بتصريف شئون المزرعة، ثم أعود إلى داري في الإسكندرية في مستهل الليل، ولم أتخلف عن تنفيذ هذا البرنامج يومًا واحدًا.

ويقول الدكتور مصطفى الحفناوي: وفي الساعة الثالثة بعد ظهر يوم 23 من شهر يوليو 1956م، فوجئت بحديث هاتفي، وكان المتحدث صديقًا من خيرة من عرفت في حياتي، وهو المرحوم اللواء صديق عبد اللطيف، حكمدار الإسكندرية يومئذٍ، ولم يكن لديّ

بالمزرعة خط هاتفي، ودهشت كيف عرف رقم الهاتف في مزرعة مجاورة، وأبلغني خفير مزرعتي أن مكالمة عاجلة من الإسكندرية تطلبني عند الجيران، وحينما تلقيت المكالمة، كان الحديث كالآتي:

حكمدار الإسكندرية: مبارك يا معالي الوزير!! هل معك سيارتك بالعزبة، أم أدبر لك وسيلة عاجلة تحضرك فوراً إلى الإسكندرية؟!.

ويقول الدكتور مصطفى الحفناوي: غير معقول يا صديق بك، وزير إيه وبتاع إيه! قل لي بربك سر استدعائي بهذه اللهفة الشديدة.

الحكمدار: أنا لا أمزح، ولا توجد أسرار، أمر الرئيس جمال عبد الناصر بأن تتوجه فوراً إلى القاهرة لمقابلته، وتنتظرك هنا بالإسكندرية طائرة ستنقلك إلى القاهرة كأسرع وسيلة، ومن غير المعقول أن تجري هذه الترتيبات العاجلة إلا إذا كنت قد عُيّنت وزيراً..

أصدر الرئيس أمره باستدعائك منذ صباح اليوم، وبحثوا عنك في القاهرة في كل مكان من غير جدوى، ثم صدرت الأوامر إلينا بالإسكندرية للبحث في جميع الشواطئ، وقد تحدثت مع السيدة حرمك، فأعطتني بيانات عن العزبة وموقعها واهتديتُ إلى رقم هاتف أحد جيرانك. رجائي ألا تضيع وقتًا، وأنا في انتظارك بمكتب (الليثي عبد الناصر) بمقر هيئة التحرير بميدان المنشية.

يقول الدكتور مصطفى الحفناوي: وكنت بملابس الحقل، غير حليق اللحية، وأسرعت إلى سيارتي، فوصلت إلى داري بشاطئ ميامي، في أقل من ساعة، حيث لقيت زوجتي وسلمتها كل ما كنت

أحمله من نقود كان مقرراً أن تُصرف للمشتغلين بالمزرعة وفي مشتريات للمزرعة، وقلت لها إني مسافر بالقطار إلى القاهرة، ومنها إلى مطار القاهرة حيث أستقل طائرة إلى أمستردام بهولندا، استجابة لدعوة برقية عاجلة، وصلتني من الشركة الهولندية موكلتي في قضية قناطر إدفينا، ولم أذكر لزوجتي حديث حكمدار الإسكندرية، حينما تيقنت أن الحكمدار لم يذكر لها شيئًا عن استدعاء الرئيس لي، فكل الذي قالته إن صدّيق بك سألها عن عنوان العزبة، ولم يقل شيئًا أكثر من هذا السؤال، وكان الباعث على اختلاق موضوع استدعائي لهولندا، هو أني استشعرت أن استدعاء الرئيس عبد الناصر (رحمه الله) لي غير صحيح، وأن الصحيح هو أنه تقرر اعتقالي، واستعمل الحكمدار الصديق أسلوبًا مهذبًا لإحضاري من المزرعة، ونقلي بالطائرة إلى القاهرة.

ويواصل الدكتور مصطفى الحفناوي: وكان لسوء الظن هذا مبرراته عندي؛ ذلك أنه قبل ذلك التاريخ بأسابيع وصلتني أنباء تؤكد أن المرحوم جمال عبد الناصر، يفاوض شركة قناة السويس بمعرفة وزير ماليته الدكتور عبد المنعم القيسوني؛ كي تستثمر بضعة ملايين من الجنيهات في مصر، وأن المقابل هو مد امتياز قناة السويس فترة يتفق عليها طرفا المفاوضة. بلغتني هذه الرواية من عدة مصادر، ونشرت الصحف أنباء عن مفاوضات بين القيسوني والشركة لاستثمار طويل الأجل لعشرين مليونّا من الجنيهات تدفعها الشركة من أرصدتها الضخمة. والحق أني فزعت وروعت من تلك الأنباء التي تبين فيما بعد أنها كانت مختلقة، ووقعت في شرك تصديقها،

فرحت ألعن نظام الحكم في أحاديثي لأصدقائي، قائلاً إني سأحرق كل مذكراتي عن قناة السويس، وإن آمالي قد تحطمت وتبخرت والعياذ بالله.

ويقول الدكتور مصطفى الحفناوي: وصادف أني في الليلة السابقة، أي في مساء 22 يوليو سنة 1956م، لقيت مصادفة صديقًا قديمًا، هو الأستاذ محمد حلمي، مدير بورصة القطن في عهد الوزارة الوفدية، وكانت به أوجاع غير وجيعتي، وقد جلسنا في حديقة فندق بوريفاج بالإسكندرية، نتحدث عن أخطاء حكومة الثورة، وطال الحديث وامتد إلى ما بعد منتصف الليل، حيث خلت الحديقة من جميع الناس، ولم يبق إلا نحن الاثنان، نكيل الطعن، وأنا أقول من قلب جريح (يا ضيعة جهدي طوال سن الشباب، ويا ضيعة قناة السويس!!). ربطت بين هذا وبين استدعائي وقصة الطائرة التي تنتظرني، وأيقنت أن (ابن حرام) كان يتلصص، ونقل حديثي للمخابرات العامة، وعلى ضوء ما كان يجرى يومئذ، كان الاستنتاج سهلاً، والاعتقال السياسي هو الأسلوب المتعارف عليه.

وهكذا يبدو واضحًا أني باختلاق رواية استدعائي لأمستردام، وتسليم ما كنت أحمله من النقود لزوجتي، كنت أريد المباعدة بينها وبين مأساة، كنت مسوقًا إليها بطول اللسان، وأن تنعم مع أطفالي بالهدوء، ولو لبضعة أيام إلى أن يصلها نبأ اعتقالي، وقد طلبت مرافقتي إلى القاهرة بالسيارة بدلاً من القطار، لتعود بها إلى الإسكندرية بعد إعداد حقيبتي ووداعي بالمطار، فرفضت طلبها موصيًا إياها بالاهتمام بالصغار قبل أن تهتم بتوافه كإعداد حقيبة

سفري، وودعتها وودعت الصغار، ثم توجهت إلى دار هيئة التحرير بالإسكندرية، حيث استقبلني بغاية الحفاوة كل من: المرحوم صدّيق عبد اللطيف، والليثي شقيق المرحوم جمال عبد الناصر، الذي لم أكن أعرفه من قبل، وقد جيء بأطباق من الكباب، وتناول ثلاثتنا وجبة غداء متأخرة، وأبلغت القاهرة تليفونيًّا أني في الطريق إلى الطائرة، وقد رافقني إليها المرحوم صدّيق عبد اللطيف، ومع كل هذا التكريم تغلّب سوء الظن، ولم تفارقني هواجس الاعتقال فور هبوط الطائرة بأرض المطار. ولكني وجدت سيارة (شيفرولية) كانت تنتظرني، ولقيتُ صديقًا آخر يستقبلني وهو من رجال الثورة، وكان من أقرب المقربين للمرحوم عبد الناصر، وهذا الصديق هو السيد/ إبراهيم الطحاوي، الذي أفهمني أنه كلف بمرافقتي إلى دار الرئيس الراحل بمنشية البكري، وأنا أعرف الدار وترددت عليها ولقيني الرئيس فيها من قبل مرات.

ويتابع الدكتور مصطفى الحفناوي: وكان ذلك اليوم شديد القيظ، وكان الرئيس يجلس مع آخر بالحديقة، ولم أكن أعرف هـذا الآخـر يومـئذ، ثم علمت بعد انصرافنا أنه (علي صبري) مدير مكتب الرئيس يومئذ للشئون السياسية، وأذكر أنه بمجرد أن دخلت من الباب الحديدي لِّلدار، نهض الرئيس ـ رحمه الله ـ بمجرد أن لمح وجهي، ولقيني في منتصف الحديقة وصافحني بحرارة، وقال في أدب جم: آسف أشد الأسف، للطريقة التي استعملناها في إحضارك، فقد استعنا بالبوليس وأجهزة الأمن في القاهرة والإسكندرية، بحثوا عنك هنا في القاهرة، فوجدوا بيتك موصداً وكذلك مكتبك،

واتصلوا بنقابة المحامين وبجميع معارفك بالقاهرة للاهتداء إليك بدون جدوى، واتصلوا بنقابة وكلاء المحامين للتعرف على وكيل مكتبك لعله يرشد عنك، بلا فائدة، ثم نجح بوليس الإسكندرية، ولما عرف مكانك عمل الترتيب اللازم لنقلك بالطائرة.

واستطرد الرئيس جمال عبد الناصر، وقال: أتعرف لماذا دعوتك لمقابلتي؟

قلت: لا..

قال الرئيس إنه قرر تأميم شركة قناة السويس، وتكريمًا للجهود الضخمة التي بذلتها في هذه القضية عهد إليّ بأن أكتب مشروع قرار جمهوري بتأميم الشركة، وأن الأمر جدّ عاجل، وأنه سيعلن هذا القرار للعالم كله في خطاب، قرر أن يلقيه بميدان المنشية بالإسكندرية في الساعة الثامنة من مساء يوم 26 يوليو سنة 1956م.

ويقول الدكتور مصطفى الحفناوي: وجرى بيننا حديث طويل امتد إلى وقت متأخر من الليل، حيث طلب مني ـ رحمه الله ـ أن أبسط القضية، بدءًا بالتاريخ، منذ قناة فرعون، وألا أوجز قط، وقال: أنا لا عمل لي الآن سواك، ألديك مانع من أن تستمر جلستنا إلى الصباح؟، وسوف أورد ما جرى في تلك المقابلة بالتفصيل في صلب هذا الكتاب.

ويقول الدكتور مصطفى الحفناوي: وانتهت المقابلة بأمر لي من الرئيس بأن ألقاه في الليلة التالية، ومعي مشروع القرار الجمهوري، في ساعة عيّنها، وتمت المقابلة في الليلة التالية بحجرة الرئيس بمبنى قيادة الثورة بالجزيرة، وجرى فيها من الأحاديث ما جرى، مما سأرويه

لسيادتكم بكل صراحة، وكان الأمر المشدد الذي صدر لي، هو ألا يعرف كائن مَن كان، أني موجود بالقاهرة؛ وذلك مراعاة لأقصى درجات السرية، كي لا يتنبه العدو فيأخذ حذره.

ويقول الدكتور مصطفى الحفناوي: وبقيت منقطعًا عن العالم، مختفيًا بين جدران سكني بالقاهرة إلى الساعة والدقيقة التي تحدث فيها الرئيس وأعلن القرار، وافتتح في نفس الدقيقة أول محضر لأول مجلس إدارة مصري لقناة السويس، وقد ضمني هذا المجلس، وبقيت فيه منذ تلك اللحظة حتى أوائل سنة 1969م، تاريخ قبول الرئيس للاستقالة التي رفعتها إليه منذ خريف سنة 1965م. وكنت إلى جانب عضوية مجلس إدارة هيئة قناة السويس، رئيس جهازها القانوني بوصفي المستشار القانوني للهيئة، منذ 5 من مارس سنة 1962م.

*****

ويقول الدكتور مصطفى الحفناوي في كتاب لكاتب عصره، الأستاذ محمد حسنين هيكل من المرحوم عبد الناصر، حيث تبرع بكلمة خاطفة في سطر أو سطرين، حينما تعرض لتأميم شركة قناة السويس، فذكر أن الرئيس الراحل كان قد استعان بمحام أجله في حجرة مجاورة، وعهد إليه بكتابة وثائق التأميم. وفات الكاتب (الذي التقى بساسة ورؤساء العالم شرقًا وغربًا) أن كبريات صحف العالم، في إنجلترا وفرنسا وأمريكا بالذات، ألقت أضواء شديدة على هذا المحامي الذي تعمد إغفال اسمه وذلك منذ اليوم التالي للتأميم، وظهر في لندن مطبوع، ترجمتْه مصلحة الاستعلامات في مصر في

حينه، عن قناة السويس، استعرض أسماء أعضاء أول مجلس إدارة لهيئة قناة السويس، وهم خلاصة مَن أنجبت مصر، في تلك الفترة، في الهندسة والإدارة والمحاسبة والاقتصاد، ومع ذلك وردت عبارة في ذلك المطبوع، قالت بالحرف الواحد: على أن التعيين الوحيد في هذا المجلس الذي له مغزى هو تعيين مصطفى الحفناوي، وفات الأستاذ هيكل ما قاله المرحوم جمال عبد الناصر لي، في لقائنا في مساء 23 يوليو سنة 1956م، وسمعه اثنان حضرا هذا اللقاء، رحمهما الله، أحدهما السيد/ علي صبري، والآخر السيد/ إبراهيم الطحاوي: أنت الآن جزء من تاريخنا، وبعلمك وجهدك الضخم نؤمم الشركة ونحرر القناة، أنت دخلت التاريخ.. قال هذا وأكثر منه تفضلاً وتواضعًا، وكان أكثر مما أستحق، ثم ذكرني بعد التأميم بسنوات في حديث له بصحيفة الأوبزرفاتور الفرنسية، وذكره في أحاديثه مع كثيرين مصريين وأجانب، لأنه ـ رحمه الله ـ كان منصفًا. ولم يقرأ الأستاذ هيكل ما كتبته عن دوري هذا مراجع علمية بأقلام علماء القانون في فرنسا نفسها، وفي أمريكا وبريطانيا، وهو مما أعتز به. ولعل المؤرخ هيكل الذي تناول حياة عبد الناصر وتاريخه لا يعلم أن لقاء عبد الناصر لي في مساء 23 يوليو وفي مساء 24 يوليو لم يكونا أول وثاني لقاء بيني وبين الرئيس الراحل بخصوص موضوع قناة السويس، وإنما التقينا مرات ومرات حول هذا الموضوع بالذات، وجمعتنا موائد الطعام للكلام فيه، وكان أول لقاء لنا في مبنى القيادة العامة بمنشية البكري في شهر أغسطس سنة 1952م، بعد قيام الثورة بأسبوعين أو ثلاثة، ثم التقينا بعد التأميم مرات ومرات. ولن يستطيع هيكل مهما استبدت به (أنا) وتعالى على الناس، أن يغير

التاريخ. وطبعًا لم يحاول رئيس تحرير الأهرام أن يعرف قصة المحامي المصري عن قناة السويس، وهي القصة التي أفردت لها مجلة (جوردي فرانس) الفرنسية مقالاً بعنوان (قصة المحامي الشاب) ظهر في عدد من أعدادها بعد التأميم بأسبوعين أو ثلاثة، وكان المرحوم جمال عبد الناصر بعد انتخابه رئيسًا لجمهورية مصر في سنة 1955م، قد طلب مني أن أروي له هذه القصة بتفصيل وإفاضة، وأن أبين البواعث التي حملتني على التصدي لقضية قناة السويس بالصورة التي جرت، وفي مساء 23 يوليو سنة 1956م، حينما اجتمعنا بداره الاجتماع الذي امتد ساعات، طلب مني أن أروي تفاصيل عملي في قضية قناة السويس كما سمعها من قبل ليسمعها علي صبري، واستفاض في سرد التفاصيل في مقابلات أخرى ليسمعها زملاء له حضروا تلك المقابلات.

ويقول الدكتور مصطفى الحفناوي: وكان بوسعي أن أنشر تلك التفاصيل وغيرها، عن جهد استمر اثنى عشر عامًا، سبق التأميم، وهي تفاصيل فيها الكثير الذي يثير، ولكني لم أفعل؛ خوفًا من كلمة (أنا)، وقد أضطر لاستعمالها، أردت أم لم أرد، وكان بوسعي أن أفرغ تلك الحقائق في كتاب أو أكثر من كتاب، وحدث بالفعل أن دعتني دار نشر كبرى في نيويورك وعرضت أن تتحمل نفقات سفري، للتعاقد معي على كتاب أضمنه تلك الذكريات، ولم نتفق، ثم تكرر العرض، بل وتم التعاقد بالفعل مع دار من أكبر دور النشر في بريطانيا وعصف العدوان الصهيوني في 5 يونيو سنة 1967م بالعقد، واعتذرت الدار عن طبع الكتاب، والحقيقة أن أسبابًا متعددة

حملتني على البعد عن الأضواء، وأن ألوذ بصمت عميق، وفي مقدمة هذه الأسباب أني كنت شديد الخوف من حقد الحاقدين ودس الدساسين، ورأيت أنه لكي أستطيع أن أقوم بواجبي العام، وأنا في مأمن من أساليب الحاقدين، ومن أسلحة التنافس غير النظيفة، يجب أن أحجب اسمي عن الأضواء، وأن أكون جنديًّا مجهولاً، بكل ما تعنيه هذه الكلمة.

*****

ويقول الدكتور مصطفى الحفناوي: سيقول قائل: وماذا جرى كي تخرج من عزلتك، وتغير أسلوبك؟ ولماذا تشرح الحقيقة الآن؟.

وهنا يرد الدكتور مصطفى الحفناوي: وجوابي بكل صراحة، هو أن الطريق الطـويل الـذي سرته من يوليو سنة 1946م إلى يوليو سنة 1956م، فيه أسرار خطيرة لا يمكن أن أخفيها عن الناس أو أسقطها، وهي ملك التاريخ، ثم إن محفوظات شركة قناة السويس السرية التي وضعنا أيدينا عليها، بعد التأميم مباشرة، فيها ما لم يعرفه أحد حتى الآن عن الكيفية التي تحكم بها مصر، وتدار بها من مكاتب شركة قناة السويس في لندن وباريس وقصر الدوبارة والإسماعيلية، في هذا الملفات أسرار يشيب الجنين إذا عرفها، فكيف أسكت عن هذا كله، وقد عرفته، أفلا أكون أمام التاريخ ممن قال الرحمن موجهًا إليهم التحذير: ﴿وَلاَ تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ (البقرة: 283).

ويقول الدكتور مصطفى الحفناوي: وهناك اعتبار آخر، هو أنني نشأت فلاحًا معدمًا، يعمل في الحقل بيده، وحملت الفأس قبل أن

أعرف كيف أمسك القلم، ومن جوف قرية صغيرة جدًّا بمحافظة الشرقية، ذهبت إلى المدينة كي أتعلم فتعلمت، إلى آخر المراحل، وحصلت على الدكتوراه من جامعة باريس، ومن منبر جامعة باريس، وفي قلب رسالة الدكتوراه عرضت قضية وطني، وتبنيت القضية وأوقفت عليها جميع إمكاناتي، ولم أكن أعلم أن الأيام تخفي في جوفها ثورة 23 يوليو سنة 1952م، ورأيت ما تمنيته حقيقة تقع ولم تكن مجرد خيال، ورأيتني على مسرح الأحداث، أقوم بدوري الرسمي، ألا يصلح هذا كله درسًا للناشئين، وقدوة للمعدمين، ودليلاً على حيوية هذا الشعب المصري الأصيل؟ أفلا يكفي هذا مبررًا لأن أروي وأقول ما عندي من غير زيف ولا تحريف؟!.

ويقول الدكتور مصطفى الحفناوي: وأخطر من كل ما قدمت، قضية قناة السويس، هي قضية اليوم، هي الصراع العربي الصهيوني، هي السر الكامن وراء هذا الصراع، وسيظل ذلك كذلك حتى تقوم الساعة، وقد تدهورت الأمور، ووصلت إلى حد يهدد بأسوأ الاحتمالات؛ فالعدو الصهيوني متشبث إلى حد الهوس والجنون بشرم الشيخ، ويعلن عن عزمه على إنشاء ميناء صهيوني في رفح، أي أن يحكم قناة السويس لو عادت الملاحة فيها، وهو الآن أكثر الشعوب ملاحة في البحر الأحمر، من إيلات إلى شرم الشيخ إلى عدن، ومعنى ذلك انهيار الأمة العربية سياسيًا وعسكريًّا واقتصاديًّا... إلخ. ألا نقوم بتوعية الشباب والأجيال المقبلة بنشر الحقائق والأسرار التي نعرفها؟؟ أليس هذا مادة لا غناء عنها للتخطيط للمستقبل؟!

ويتابع الدكتور مصطفى الحفناوي: من أجل ذلك، وبعد اقتناع بأني أقوم بواجب وطني، حكيت لك هذه الحقيقة، وأمطت اللثام عن كل الذي عرفته، ويجب أن يعرفه أبناء وطني، وأطمئن الحاسدين والحاقدين إلى أني صادق حينما أقول إني لا أطلب شيئًا غير الحقيقة، فقد تجاوزت سن الثمانين يا بني بعام وبعض العام، ولم أعد منافسًا لأي طامع في منصب أيًّا كان، وإنما أطلب رضا الله سبحانه وتعالى؛ رجاء أن يغفر لي ربي خطيئتي، وأن يوفقني ويوفق الجميع إلى ما فيه الخير والنفع.

obeikandl.com